مفاهيم الاشتقاق ومصطلحاته في الدرس اللغوي العربي

د.إدريس بوكراع
جامعة محمد الأول بوجدة
جامعة محمد الخامس أبوظبي

الأصل – في مجالات العلوم والفنون – أن تكون المفاهيم والمصطلحات واضحة، يحتل كل منها الحيز المخصص له. ولكن قد يحدث أن تلتبس المفاهيم وتتداخل المصطلحات، فتحمّل المصطلحات ما لا تتحمل، ويُجنح بها نحو اتجاهات أخرى غير مناسبة لها. يحدث هذا الجنوح – أحيانا – قصدا لتحقيق مآرب خاصة، ولكنه كثيرا ما يحدث عن غير قصد، وخاصة حين تتقارب المفاهيم، وتتشابه، فينقل المصطلح من مفهوم إلى آخر دون الانتباه إلى تغيير مساره.

ويعد الاشتقاق من أبرز القضايا اللغوية التي حدث فيها الاضطراب في المفاهيم والمصطلحات، فأصبح من العسير على طلاب العلم الإحاطة بالاشتقاق وتمييز أصنافه.

لقد اتخذ الاشتقاق – في تاريخ الدرس العربي – مسارا تميز فيه بالتغير في المفهوم، والتعدد في المصطلح، مما كان له الأثر البارز في استيعاب الموضوع والاستفادة منه.

أولا: مسار الاشتقاق:

- الصورة الأولى:

تنبه اللغويون إلى الاشتقاق في مرحلة جمع اللغة، حين لاحظوا تشابها ظاهرا بين مجموعات المفردات العربية، وتعددت وجهات نظرهم فيما بعد،

ولكن أغلبهم ذهب إلى إثبات الاشتقاق الذي يعني "أَخْذ صيغةٍ من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة، كضارب من ضرب وحَذِر من حَذِر"[1].

وقد اجتهد العلماء في دراسة الاشتقاق، وفي تحديد أصل المشتقات، فمال البصريون إلى المصدر، ومال الكوفيون إلى الفعل، ومال غيرهما إلى آراء أخرى لم تلق رواجا كما لقيت آراء البصريين والكوفيين.

وعمد بعض اللغويين إلى تطبيق نظرية الاشتقاق فألفت كتب، منها: "اشتقاق أسماء البلدان" لأبي المنذر الكلبي (204هـ)، و"الاشتقاق" لقطرب (206هـ)، و"اشتقاق الأسماء" للأصمعي (216هـ)، و"الاشتقاق" للمبرد (285هـ)، وغيرها.

وظل مفهوم الاشتقاق واضحا، محدد المعالم، ولكن المصطلحات الدالة عليه تعددت، فسمي: اشتقاقا، واشتقاقا صغيرا، وأصغر، وعاما، وصرفيا.

- الصورة الثانية:

اتجه ابن فارس (395هـ) بالاشتقاق اتجاها خاصا متميزا، فقد كان بعض المعجميين يشيرون - أحيانا - إلى المعنى الجامع للمشتقات خلال تعريف المفردات، فلما ألف ابن فارس معجم "مقاييس اللغة" نقل الاشتقاق إلى ميدان التطبيق المعجمي، فعمد إلى افتتاح كل باب من أبواب كتابه بدلالة الجذر التي اجتهد في استخلاصها من المفردات المشتركة في ذلك الجذر. وسمى كتابه "مقاييس اللغة" للدلالة على أوجه التشابه بين المفردات، أو الجوامع الاشتقاقية التي يُقاس عليها كل جذر من جذور اللغة. يقول ابن فارس في مقدمة الكتاب: "إن للغة العرب مقاييسَ صحيحةً، وأصولا تتفرع منها فروعٌ. وقد ألف الناس

(1) السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1998م، ج1، ص275.

في جوامع اللغة ما ألفوا، ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، ولا أصل من الأصول. والذي أومأنا إليه باب من العلم جليل، وله خطر عظيم، وقد صدّرنا كل فصل بأصله الذي يتفرع منه مسائله، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل، ويكون المجيب عما يُسْأَل عنه مجيبا عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه"[2].

هذا هو مفهوم الاشتقاق الذي ظل سائدا إلى نهاية القرن الرابع الهجري، فقد كانت كل إشارة نظرية، وكل تطبيق عملي إنما يتجه نحو أصل واحد لمجموعة من المفردات تشترك في الجذر، أي في الحروف الأصلية للكلمات بترتيبها، فإذا اختلف الترتيب كان الانتقال التلقائي إلى جذر آخر، وإلى أصل اشتقاقي آخر. ولهذا لا يكاد العلماء والباحثون يصنفون عمل ابن فارس ضمن فرع مستقل من الاشتقاق، وإنما يصلون صنيعه بالاشتقاق الصغير، ويعتبرونه اجتهادا داخل دائرته. نستثني من هذا إشارة لعبد السلام هارون الذي اقترح أن يسمى عمل ابن فارس في مقاييسه بالاشتقاق الكبير. فقد لاحظ عبد السلام هارون خطأ للسيوطي في "المزهر"، فقال: "والسيوطي في المزهر يبسط مثالا للاشتقاق الأكبر ... قال: قولهم شجرت فلانا بالرمح، تأويله: جعلته فيه كالغصن في الشجرة ... فقد أخطأ السيوطي بهذا المثال قاعدة ابن جني في الاشتقاق الأكبر ... أما أنا فقد رأيت أن هذا الضرب من الاشتقاق الذي ساق السيوطي مثله جدير بأن تنشأ له تسمية خاصة، هي: الاشتقاق الكبير، فإن المدلول الذي ساقه ابن جني للاشتقاق الصغير أو الأصغر يتناول أمرين: أما أحدهما فهو اشتقاق المشتقات السبعة من أفعالها، كاسم الفاعل واسم المفعول من فعل معين من أفعال المادة. ولا ريب أن المعنى الذي في هذا العمل يسري بتمامه في جميع مشتقاته. ولا يختلف اللغويون في ذلك. وأما الآخر فهو قرابة فعل وتصاريفه من أفعال المادة الواحدة وتصاريفه لفعل آخر وتصاريفه من المادة

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، ط1399هـ – 1979م، ج1، ص1.

نفسها، وهو الاشتقاق الذي لم يفطن له من اللغويين إلا القليل، فطن له ابن جني، وفطن له كذلك معاصره ابن فارس فطنة أكمل وأشمل، إذ أجرى هذا القياس الاشتقاقي في جمهرة مواد اللغة، بتأليفه كتاب المقاييس، الذي نجح فيه نجاحا رائعا بإرجاعه كلمات كل مادة إلى قدر مشترك أو أقدار مشتركة فيها جميعا. فهذا الاشتقاق الذي يدعوه ابن جني صغيرا أو أصغر جدير بأن نسميه اشتقاقا كبيرا"[3].

هذه دعوة لعبد السلام هارون إلى تصنيف نماذج الاشتقاق الصغير – كما وردت عند العلماء – إلى صنفين متمايزين:

الأول: "اشتقاق المشتقات السبعة من أفعالها، كاسم الفاعل واسم المفعول من فعل معين من أفعال المادة"[4]. وهو الاشتقاق الذي عني بدراسته علماء الصرف.

والثاني: "قرابة فعل وتصاريفه من أفعال المادة الواحدة وتصاريفه لفعل آخر وتصاريفه من المادة نفسها". وهو اشتراك أصناف من الكلمات - وإن اختلفت معانيها – في جذر واحد. كاشتراك (البِطالة، والبطلان، والبطولة) في مادة

(ب ط ل)، واشتراك، الذهب والذهاب في مادة (ذ ه ب)، واشتراك الإنفاق، والنَّفاق، والنِّفاق في مادة (ن ف ق).

ولم يحظ هذا النوع بعناية الصرفيين، واعتنى به فقهاء اللغة والمعجميون. ويقترح عبد السلام تسميته بالاشتقاق الكبير. ولكن اقتراحه لم يجد آذانا صاغية، فلم ينتشر بين الباحثين، ولم يشر إليه أحد ضمن أنواع الاشتقاق.

(3) عبد السلام محمد هارون، مقدمة كتاب الاشتقاق، لابن دريد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، ص27.
(4) * الظاهر أن عبد السلام هارون يميل إلى رأي الكوفيين في أصل الاشتقاق.

- الصورة الثالثة:

حين ألف ابن جني (392هـ) كتابه "الخصائص" أشار إلى موضوع آخر ربطه بالاشتقاق، سماه "الاشتقاق الأكبر"[5]. وهو - في رأيه - أحد أنواع الاشتقاق يقوم على تقليب الأحرف الأصلية للكلمة[6]، فذهب إلى أن العرب ربطوا بين الألفاظ والمعاني ربطا واسعا عاما فانطلقوا من الأصول الثلاثية وجميع صورها الممكنة فجعلوا لها معنى جامعا ترتد إليه[7]. يقول ابن جني: "وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتَعقِد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيءٌ من ذلك عنه رُدَّ بِلُطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد"[8].

ويسوق أمثلة لذلك فيذكر أن (ك م ل) و(ك ل م) (م ك ل) و(م ل ك) و(ل ك م) و(ل م ك) جمعيها تعود إلى معنى القوة والشدة وإن اختلفت صور تقاليبها، وأن (ق ول)، (ق ل و)، (و ق ل)، (و ل ق)، (ل ق و)، (ل وق) بجميع تقاليبها تعود إلى معنى الإسراع والخفة[9].

إن هذا النوع من الاشتقاق عند ابن جني أعمق من الاشتقاق الصغير لأنه عبارة عن ارتباط مطلق غير مقيد بترتيب بين مجموعات ثلاثية صوتية، ترجع تقاليبها الستة وما يتصرف من كلٍّ منها إلى مدلول واحد مهما يتغاير ترتيبها الصوتي. والمتأمل لصنيع ابن جني يلاحظ أنه حاول جمع تقاليب المادة وما

(5) سماه الكبير أيضا.

(6) اختلف العلماء قديما وحديثا في تسميته، فسمي كبيرا، وأكبر، وكُبَارا، وتقليبا.

(7) يذكر ابن جني أن أستاذه أبا علي الفارسي كان يستنبط – في بعض المناسبات – المعنى الجامع لبعض الأصول، ولكنه اكتفى بنماذج قليلة، ولم يؤمن بسريان ذلك في جميع عناصر المعجم العربي. ينظر: ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4 (د. ت)، ج2، ص135.

(8) ابن جني، الخصائص، ج2، ص136.

(9) المصدر نفسه، ج1، ص5 و14.

تصرف منها، فبسط القول في النماذج التي اختارها بعناية فائقة، وأهمل ما لم ينسجم مع المعنى العام الذي أورده.

لقد كان ابن جني معجبا – غاية الإعجاب – باللغة العربية، ولعل هذا الإعجاب هو الذي دعاه إلى تصور هذه العلاقة الجامعة بين الأسر اللغوية المشتركة في الحروف الأصلية وإن اختلف ترتيبها. وقد حاول أن يدافع عن نظريته، ولكنه لم يستطع أن يقنع بها غيره. وقد عبر السيوطي عن رفضه لنظرية ابن جني في الاشتقاق صراحة حين قال: "وهذا مما ابتدعه الإمامُ أبو الفتح ابن جني وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به يسيرا، وليس معتَمدا في اللغة، ولا يصح أن يُستنبط به اشتقاق في لغة العرب، وإنما جعله أبو الفتح بيانا لقوة ساعده ورده المختلفات إلى قَدْرٍ مشترك، مع اعترافه وعِلْمِه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيبها تفيد أجناسا من المعاني مغايرة للقَدْر المشترك"[10].

– الصورة الرابعة:

ظل مفهوم الاشتقاق منحصرا في النوعين السابقين: الصغير والأكبر مدة من الزمن، فلما ألف السكاكي (626 ه) كتابه "مفتاح العلوم" أشار إلى أن أحد شيوخه، وهو الحاتمي أضاف للاشتقاق نوعا ثالثا، فقال: "اقتصرت في التجنيس على ما تحتمله حروف كل طائفة بنظم مخصوص، كمطلق معنى البينونة فيما ضربنا من المثال للباء ثم الياء ثم النون، وهو المتعارف، سمي الاشتقاق الصغير، وإن تجاوزت إلى ما احتملته من معنى أعم من ذلك كيفما انتظمت، مثل الصور الست للحروف الثلاثة المختلفة من حيث النظم، والأربع والعشرين للأربعة، والمائة والعشرين للخمسة، سمي الاشتقاق الكبير. وههنا نوع ثالث من

(10) السيوطي، المزهر، في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ج1، ص275.

الاشتقاق كان يسميه شيخنا الحاتمي رحمه الله الاشتقاق الأكبر: وهو أن يتجاوز إلى ما احتملته أخوات تلك الطائفة من الحروف نوعا أو مخرجا"[11].

وهكذا توسع مفهوم الاشتقاق، فأصبح يضم ثلاثة أنواع: صغير، وكبير، وأكبر. وتحول مفهوم الاشتقاق الكبير من الدلالة على نظرية ابن جني إلى الإبدال، وحل محله مصطلح (الاشتقاق الكبير).

والراجح أن الحاتمي – حين اعتبر الإبدال نوعا من الاشتقاق – اضطر إلى تغيير المصطلحات، فقد كان الاشتقاق قبله نوعين فقط، هما: الصغير والأكبر، وكانا يشتركان في الاستخراج من أصل واحد لا خلاف فيه بين الحروف إلا في الترتيب، فالصغير من شروطه استقرار الحروف في أماكنها، والأكبر يتعداه إلى كل الصور الممكنة بالتقليب. فلما أضاف الحاتمي النوع الثالث – وهو الإبدال – رأى أن التقليب أقرب منه إلى الاشتقاق الصغير، فأعاد التصنيف بأن ترك للصغير مصطلحه، وجعل التقليب اشتقاقا كبيرا – لقربه من الصغير – وجعل الإبدال – لبعده – اشتقاقا أكبر[12].

- الصورة الخامسة:

حافظ الشريف الجرجاني (816هـ) – في التعريفات – على قسمة الحاتمي للاشتقاق، وعلى المصطلحات التي أوردها السكاكي، ولكنه أحدث تغييرا في مفهوم الاشتقاق الكبير، فقال: "الاشتقاق: نزع لفظٍ من آخر، بشرط مناسبتهما معنىً وتركيبًا، ومغايرتهما في الصيغة. الاشتقاق الصغير: هو أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في الحروف والتركيب، نحو : ضرب، من :الضرب. الاشتقاق

(11) السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418ه، ص48–49

(12) سار على هذا النهج من المحدثين: الدكتور علي عبد الواحد وافي، ينظر كتابه: فقه اللغة، نهضة مصر، ط3، 2004م، ص137 وما بعدها. وكذلك فعل الدكتور إبراهيم أنيس، ولكنه بعدما ذكر الاشتقاق الأكبر وهو الإبدال قال: "أجدر به أن يعد من الكلمات التي تطورت أصواتها"، فعبر عن إخراجه من دائرة الاشتقاق. ينظر كتابه "من أسرار اللغة"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1966م، ص52.

الكبير: هو أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في اللفظ والمعنى دون الترتيب، نحو: جبذ، من: الجذب. الاشتقاق الأكبر: هو أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في المخرج، نحو: نعق، من النهق"[13].

لقد نقل الجرجاني مصطلح (الاشتقاق الكبير) فجعله دالا على القلب المكاني، بعد أن كان دالا على نظرية ابن جني[14].

وفي العصر الحديث سار عبد القادر المغربي على نهج الجرجاني في مصطلحات الاشتقاق ومفاهيمه، فاعتبر الصغير، والكبير، والأكبر. وقال عن الاشتقاق الكبير: "القلب: ويقال له أيضا الاشتقاق الكبير. وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب، مثل: فعل (جبذ) المشتق من مادة (الجذب)"[15].

وأشار إلى أن النحت "أن تعمد إلى كلمتين أو جملة فتنزع من مجموع حروف كلماتها كلمة فذة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها...وهو في الحقيقة من قبيل الاشتقاق، وليس اشتقاقا بالفعل، لأن الاشتقاق أن تنزع كلمة من كلمة، والنحت أن تنزع كلمة من كلمتين أو أكثر"[16].

- الصورة السادسة:

كان عبد الله أمين من رواد البحث المحدثين في الاشتقاق، وقد تميز بإضافة نوع رابع للاشتقاق هو النحت، فقال في مقدمة كتابه "الاشتقاق": "أقسام علم الاشتقاق أربعة، واخترت لها من الصفات الصغير والكبير والكُبَار

(13) الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ -1983م، ص27.

(14)لم يعبر الجرجاني بصريح اللفظ عن القلب المكاني، ولكن المثال الذي ضربه يدل عليه.

(15) عبد القادر المغربي، الاشتقاق والتعريب، مطبعة الهلال، مصر، ط2، 1947م، ص14.

(16) عبد القادر المغربي، الاشتقاق والتعريب، 13. حذا حذو المغربي مصطفى الشهابي في كتابه: "المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث"، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ط1955م، ص10 وما بعدها.

والكُبَّار ... الاشتقاق الصغير ... الاشتقاق الكبير، وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في بعض أحرفهما مع تشابه بينهما في المعنى واتفاق في الأحرف الثابتة وفي مخارج الأحرف المغيرة أو في صفاتها أو فيهما معا. ويسمى إبدالا لغويا تمييزا له من الإبدال الصرفي، وقد أسميته إبدالا اشتقاقيا ... الاشتقاق الكُبَار: وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في ترتيب بعض أحرفهما بتقديم بعضها على بعض مع تشابه بينهما في المعنى واتفاق في الأحرف. ويسمى هذا الاشتقاق قلبا لغويا تمييزا له من القلب الصرفي الإعلاليّ ... وقد أسميت هذا القلب اللغوي القلب الاشتقاقي ... الاشتقاق الكُبَّار: ويسمى نحتا. والنحت: أخذ كلمة من كلمتين فأكثر مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى"[17].

لقد تفرد عبد الله أمين – بالإضافة إلى إلحاق النحت بالاشتقاق – بتغيير مفهوم مصطلح "الاشتقاق الكبير"، فسمى به الإبدال، كما تميز بجعل الاشتقاق الكُبَار دالا على مفهوم جديد لم يسبق إليه، جمع فيه القلب المكاني ونظرية ابن جني في الاشتقاق. ففي تفصيل القول في مبحث الاشتقاق الكُبَار قال: "هو أن تجد بين كلمتين فأكثر تماثلا في الحروف واختلافا في ترتيبها بتقَدُّم بعضها على بعض، بدون زيادة أو نقص فيها مع الاتحاد في المعنى. أو أن تعمد إلى كلمة فتشتق منها كلمة فأكثر، بتقديم بعض الحروف على بعض، بدون زيادة أو نقص فيها مع الاتحاد في المعنى. وأكثر ما يكون الاشتقاق الكبار أو القلب في الكلمات الثلاثية. وأول من عرفه إمام الأئمة أبو الفتح عثمان بن جني، فقال: وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا..."[18].

لقد عرّف عبد الله أمين الاشتقاق الكُبَار تعريفا مفتقرا للدقة، إذ لا يكاد يتبين القارئ منه الفرق بين الجزء الأول والجزء الثاني، أي بين قوله: "أن تجد بين

(17) عبد الله أمين، الاشتقاق، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2000م، ص 1 –2.
(18) المرجع نفسه، ص373.

كلمتين فأكثر تماثلا في الحروف واختلافا في ترتيبها بتقدم بعضها على بعض بدون زيادة أو نقص فيها مع الاتحاد في المعنى"، وبين قوله: "أن تعمد إلى كلمة فتشتق منها كلمة فأكثر بتقديم بعض الحروف على بعض، بدون زيادة أو نقص فيها مع الاتحاد في المعنى"، خاصة حين ذكر في الجزء الثاني "الاتحاد في المعنى"، وهو سهو منه، لأن المراد هو الاتحاد في المعنى العام بين جميع المفردات المنتمية إلى أصل واحد.

ويستطيع القارئ أن يتبين مراد عبد الله أمين من خلال النماذج التي قدم لهذا النوع من الاشتقاق، ومنها:

- "لُعْطَة، عُلْطَة: وهي خط بسواد أو صفرة تخطه المرأة في خدها"[19]. وهذا هو القلب المكاني.

- و"السِّوار: معروف، وهو حلي يحيط بالمعصم من ذهب أو فضة، والرَّسْوَة: ما كان من خرز"[20]. وفيه إشارة إلى نظرية ابن جني في الاشتقاق، إذ السوار والرسوة يشتركان في معنى عام جامع، ولا يدلان على معنى واحد كما هو شأن اللعطة والعلطة.

- الصورة السابعة:

يرى الدكتور صبحي الصالح أن الاشتقاق أربعة أنواع هي: الأصغر، والكبير، والأكبر، والكُبَار. يقصد بالأصغر الاشتقاق الصرفي، ويقصد بالكبير نظرية ابن جني، وبالأكبر الإبدال، وبالكُبَار النحت. وهو في القسمة تابع لعبد الله أمين، ولكنه يختلف عنه في المصطلحات ومفاهيمها، فقد سمى عبد الله أمين الاشتقاق الصرفي صغيرا، وسماه هو أصغر، وسمى عبد الله الإبدال اشتقاقا كبيرا وسماه هو: اشتقاقا أكبر، وسمى عبد الله النحت اشتقاقا كبارا، وسماه هو اشتقاقا كبّارا، واختلف معه في نظرية ابن جني مفهوما ومصطلحا، فقد دمج

(19) المرجع نفسه، ص388.

(20) المرجع نفسه، ص388.

عبد الله القلب المكاني بنظرية ابن جني وسماهما قلبا كُبَارا أو أكبر، بينما أفرد هو نظرية ابن جني وسماها اشتقاقا كبيرا[21].

ثانيا: مآلات الاشتقاق:

1. مآلات المفهوم:

- توسع المفهوم وانحساره:

تبين من تتبع مسار الاشتقاق وحركة دراسته، أن مفهومه شهد نمطا واضحا من التمدد والاتساع، فقد بدأ مفهوما واحدا مقتصرا على صلة القرابة بين الصيغ القياسية المعروفة في لسان العرب داخل المادة اللغوية الواحدة، ثم ألحق به ابن جني مفهوما ثانيا حين نادى بوجود صلة أعمق بين مجموعة المفردات داخل المادة تسري فيها وإن اختلف ترتيب عناصرها الأساس، فأصبح الاشتقاق صغيرا وأكبر. وأضاف بعض العلماء صنفا ثالثا للاشتقاق هو الإبدال. ثم أضاف عبد الله أمين صنفا رابعا هو النحت، واجتهد في صياغة تعريف جامع يستوعب كل أنواع الاشتقاق، فقال: "الاشتقاق أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى جميعا"[22].

لكن مفهوم الاشتقاق شهد انحسارا لدى بعض الباحثين المحدثين قريبي العهد من عبد الله أمين، كعبد الواحد وافي، ومصطفى الشهابي اللذين اقتصرا على ثلاثة أنواع من الاشتقاق هي: الصغير والكبير والأكبر، وتحدثا في كتابيهما عن النحت، ولم يدرجاه ضمن أنواع الاشتقاق[23].

ثم عاد صبحي الصالح - في كتابه دراسات في فقه اللغة -إلى القسمة الرباعية من جديد بإدراجه النحت ضمن أنواع الاشتقاق. واقتصر بعض

(21) د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1960م، ص173.

(22) عبد الله أمين، الاشتقاق، ص 1.

(23) ينظر: عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص144. ومصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ص10-14.

الباحثين – فيما بعد – على الاشتقاقين الصغير والكبير، كما نجد عند رمضان عبد التواب في كتابه "فصول في فقه العربية".

وما يزال الباحثون مختلفين في مفهوم الاشتقاق وأنواعه. وقد آن الأوان لتوحيد التصور والاقتصار على الاشتقاق في صيغته الأولى فقط، وتسمية الظواهر، والنظريات الأخرى بما يناسبها من الأسماء حتى يؤمن اللبس.

- بين نظرية ابن جني والقلب المكاني:

لعل أهم انحراف عن المسار حدث في تاريخ الدرس الاشتقاقي العربي هو اعتبار الاشتقاق - الذي نادى به ابن جني – قلبا مكانيا. فقد ذكر الجرجاني أن معناه: "أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في اللفظ والمعنى دون الترتيب، نحو: جبذ، من: الجذب"[24]. وهو تعريف يناسب القلب المكاني، ولا يناسب ما ذهب إليه ابن جني. وابن جني نفسه – ميز في كتابه "الخصائص" – بينهما، فتحدث عن القلب المكاني وما يتعلق به في مواضع[25]، وخصص للاشتقاق الأكبر فصلا خاصا[26].

وقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي من أوائل اللغويين الذين تنبهوا للقلب المكاني، فتتبع نماذجه في كتاب "العين" خلال تعريف المفردات، كما في قوله: "الخَيْلَعُ والخَيْعَلُ مقلوب، وهو من الثياب غير منصوح الفرجين تلبسه العروس ... والخَيْعَلُ والخَيْلَعُ من أسماء الذِّئب"[27]. وكذلك قوله: "العِضْفَاجُ: الضَّخْم السَّمين الرِخْو. وعَضْفَجَتُه: عِظَمُ بطْنه وكَثرةُ لحمه. وقد يقال: عِفْضَاج بمعنى عِضْفَاج، مقلوب"[28]. ومنه: "اللَّمَقُ: الطريق، قال رؤبة:

(24) الجرجاني، التعريفات، ص27.

(25) كما في: "باب في الأصلين يتقاربان في التركيب بالتقديم والتأخير"، الخصائص، ج2، ص71

(26) الخصائص، ج2، ص135

(27) الخليل، العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، (د. ت)، ج1، ص 119 – 120.

(28) المصدر نفسه، ج2، ص310.

ساوى بأيديهن من قصد اللَّمَقْ. وهو اللَّقَم، مقلوب"[29]. وفي هذا إشارة صريحة للقلب المكاني، وهو استعمال اللفظ العربي بصيغتين بقلب أماكن الحروف دون أن يتغير المعنى. ويتبين من حديث الخليل في الموضوع أن بعض نماذج القلب المكاني كانت شائعة في زمانه، أبرزها (جذب وجبذ) حتى صارت مضرب الأمثال. يقول الخليل: "ازحَلَفَّ وازْلَحَفَّ مثل جذب وجبذ"[30].

والقلب المكاني – عند الخليل – من مظاهر اختلاف لغات العرب، يقول الخليل: "ضَفَعَ الإنسان يَضْفَعُ ضَفْعا، إذا جَعَس. وفَضَعَ ... لغتان، مثل جذب وجبذ مقلوبا"[31]. وهذا تعبير صريح من الخليل بإثبات القلب المكاني، وأنه – وإن كان في أصله من صور اختلاف لهجات العرب – صار من مظاهر التنوع في المعجم العربي بعد الاحتكاك والتداخل بين لهجات العرب، فقوله: "لغتان" يعني أن صيغتي "ضَفَعَ" و"فَضَعَ" تدلان على معنى واحد، وتتناوبان في الاستعمال.

وظل هذا التصور سائدا في التراث العربي، فلما ألف ابن فارس كتابه "الصاحبي" اعتبر القلب المكاني من سنن العرب في كلامها، فقال: "ومن سنن العرب القلبُ، وذلك يَكون في الكلمة، ويكون في القِصَّة. فأمّا الكلمة فقولهم: "جَذَبَ، وجبَذَ" و"بكل، ولبَكَ"، وهو كثير، وقد صنّفه علماء اللغة"[32].

وقد اعتنى ابن جني – في الخصائص - بموضوع القلب المكاني، فذهب إلى أن القلب لا يكون إلا إذا لم يمكن أن يكون اللفظان جميعا أصلين؛ بحيث يَقْصُر أحدهما عن صاحبه، ولا يساويه، فقال: "اعلم أن كلَّ لفظين وُجد فيهما تقديم وتأخير فأمكن أن يكونا جميعا أصلين ليس أحدهما مقلوبا على صاحبه

(29) المصدر نفسه، ج5، ص173.

(30) المصدر نفسه، ج3، ص333

(31) المصدر نفسه، ج1، ص282.

(32) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الناشر محمد علي بيضون، ط1، 1418هـ-1997م، ص153.

فهو القياس الذي لا يجوز غيره، وإن لم يمكن ذلك حكمت بأن أحدهما مقلوب عن صاحبه، ثم رأيت أيهما الأصل، وأيهما الفرع، وسنذكر وجوه ذلك. فمما تركيباه أصلان لا قلب فيهما قولهم: جَذَب، وجَبَذ؛ ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه، وذلك أنهما جميعا يتصرفان تصرفا واحدا، نحو: جذب يجذب جذبا فهو جاذب، والمفعول مجذوب، وجبذ يجبِذ جبذا فهو جابذ، والمفعول مجبوذ. فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك؛ لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر. فإذا وقفت الحال بينهما، ولم يُؤْثَرْ بالمزية أحدهما وجب أن يتوازيا، وأن يَمْثُلا بصفحتيهما معا، وكذلك ما هذه سبيله. فإن قَصُر أحدهما عن تصرف صاحبه، ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفا أصلا لصاحبه. وذلك كقولهم: أَنَى الشيءُ يَأْنِي، وآنَ يَئِينُ، فآنَ مقلوب عن أَنَى. والدليل على ذلك وجودك مصدرَ أنى يأني وهو الإنَى، ولا تجد لـ: آن مصدرا؛ كذا قال الأصمعي"[33].

والحقيقة أن اعتبار القلب أقوى من نفيه في جميع النماذج التي أورد ابن جني ومن لف لفه، لأن التقارب في اللفظ والاتحاد في المعنى يبعد أن يكون من قبيل الصدفة. فكيف يعقل أن يكون كل من (جذب) و(جبذ) أصلين نشأ كل منهما بمعزل عن الآخر؟ وهما متقاربان تقاربا شديدا في اللفظ ومتحدان في المعنى.

وقد استند ابن جني إلى الاشتقاق لتقوية موقفه، فزعم أن تساوي اللفظين في المشتقات دليل على أصالتهما، وتفاوتهما فيه دليل على القلب. والحق أن تساوي اللفظين أو تفاوتهما في الاشتقاق ليس هو الفيصل في إثبات القلب أو نفيه، وإنما القلب المكاني ظاهرة معجمية صوتية، توجد في العربية كما توجد في غيرها من اللغات واللهجات، ولها أسباب، منها: توخي سهولة النطق، وأخطاء السمع أو النطق، وإرادة العبث والتهكم في الكلام، واختلاف اللهجات.

(33) الخصائص، ج2، ص71-72.

ومن هنا يتضح الفرق الجلي بين القلب المكاني والاشتقاق الأكبر الذي نادى به ابن جني، إذ القلب ظاهرة لغوية مستعملة في لغة العرب، متعلقة بأزواج محدودة من المفردات، والاشتقاق الأكبر نظرية ومذهب فكري مؤسس على تصور لا يقتصر على أزواج من الكلمات، وإنما يتسع لجميع تقاليب الجذر. وابن جني لم يقل في الاشتقاق الكبير – مثلا – إن (جَبَرَ) يرادف (بَجَرَ)، ولكنه يرى أن المفردات العربية التي تشترك في مادة (ج ب ر) وتقاليبها كلها يجمعها معنى عام واحد. وهذا المعنى ليس مستعملا في اللغة، وإنما هو مجرد اجتهاد أعمل ابن جني فيه فكره، وهو لذلك معرض للقبول والرفض. ولهذا اختلف العلماء والباحثون فيه، فأثنى عليهم بعضهم، وانتقده آخرون بشدة[34].

– جدوى أنواع الاشتقاق في تنمية العربية:

اختلفت وجهات نظر العلماء والباحثين في أهمية أنواع الاشتقاق في تنمية معجم العربية، فذهب بعضهم إلى إمكان استثمار جميع الأنواع، وأشار عبد الله أمين إلى أهمية الإبدال والقلب في توليد الألفاظ، فقال: "الاشتقاق الكبير ... ويسمى إبدالا لغويا تمييزا له من الإبدال الصرفي. وقد أسميته إبدالا اشتقاقيا ... والإبدال الاشتقاقي أوسع دائرة وأجدى عائدة على اللغة من الإبدال الصرفي لأنه يزيدها ثروة وغنى ... الاشتقاق الكُبار ... ويسمى هذا الاشتقاق قلبا لغويا ... وهذا الضرب من الاشتقاق إذا أحسن الانتفاع به أمد اللغة بثروة حسنة"[35].

وكان مصطفى الشهابي من أوائل العلماء العرب المحدثين عناية بالمصطلح، وقد ألف عددا من الكتب والمقالات المتخصصة في المصطلح، من أهمها: كتابه: "المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث"، تناول فيه جملة من المواضيع، منها: وسائل نمو اللغة العربية، فقال: "نمت اللغة

(34) اعترض عليه السيوطي فقال: "هذا مما ابتدعه الإمامُ أبو الفتح بن جني ... وليس معتَمدًا في اللغة، ولا يصح أن يُستنبط به اشتقاق في لغة العرب". المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص275. وأثنى عليه آدم ميتز فقال: "إن لغويي العرب لم يعرفوا إنتاجا أعظم منه"، ينظر: د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص209.

(35) عبد الله أمين، الاشتقاق، ص1–2.

العربية بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب. وهي الوسائل التي رجع العلماء والنقلة إليها عندما وضعوا آلاف المصطلحات في صدر الإسلام، سواء في العلوم الفقهية واللغوية، أو في علوم فارس واليونان والهند وغيرها من الأمم. وهذه الوسائل هي التي نتخذها في زمننا هذا لنقل العلوم الحديثة إلى لغتنا الضادية"[36].

ثم عمد إلى تفصيل القول في هذه الوسائل التي رآها مناسبة لتوليد المصطلح العربي، فبدأ بالاشتقاق، وجعله ثلاثة أنواع: الصغير، والكبير، والأكبر. الصغير هو الاشتقاق المعروف، والكبير هو القلب، والأكبر هو الإبدال، ثم قال في جدوى هذه الأنواع: "الاشتقاق الصغير ... هو الذي يتبادر إلى الذهن عند الإطلاق، لأنه الأوسع دائرة، والأكثر نتاجا، وإلا فإن في لغة العرب وسائل أخرى لنموها وتكاثر كلماتها ... إلا أنها تجري على نمط آخر، وتتحرك في دائرة أضيق. وأريد بها: (القلب)، و(الإبدال)، و(النحت)"[37].

ولكن دعوى الشهابي المبكرة لم تتقبلها مجامع اللغة العربية، وقابلها عدد من الباحثين بالرفض، ومنهم الدكتور عبد السلام المسدي الذي أفاض في نقده للشهابي، فقال: "باب الاشتقاق قد اتسع أمره في الدراسات فأدرج فيه ما يدخل الضيم على استقامة نظرية في علم المصطلح العربي ... فنمط الاشتقاق التوليدي ... قد اصطلح عليه بالاشتقاق الصغير ثم أردف إليه نوعان آخران هما: الاشتقاق الكبير والاشتقاق الأكبر. فأما الكبير – ويسمى كذلك قلبا – فهو أن يكون بين الكلمة الأصلية والكلمة المشتقة تناسب في اللفظ والمعنى دون ترتيب في الحروف (ومعناه تقديم بعض أحرف الكلمة الواحدة على بعض، مثل: جذب وجبذ، وعاث وعثى)... فمكمن الغرابة التصنيفية ليس في تقرير أمر الظاهرة، فذلك حصافة سبق إليها الأقدمون. ولكن المضني هو أن نورد هذا الضرب من الاشتقاق على أنه من الوسائل التي نمت بها العربية، ورجع العلماء

(36) مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ص9–10.

(37) المرجع نفسه، ص10.

والنقلة إليها عندما وضعوا آلاف المصطلحات في صدر الإسلام، سواء في العلوم الفقهية واللغوية أو في علوم فارس ويونان والهند وغيرها. فهذا النوع من الاشتقاق – إن جاز عده اشتقاقا – مظهر معجمي ليس إلا...لذلك كان سماعيا محضا...قد يكون في أصل منشئه شذوذا في الوضع أو لحنا في الاستعمال، تداولته اللغة فتراكم بما يشبه العوارض المرضية، وربما كان تنوعا لهجيا... فالقلب بهذه الخصيصة يفضي إلى خلق أزواج معجمية خلو من أي قيمة وظيفية، إذ لم تنبن على مردود دلالي ... أما ثالث الاشتقاقات فهو الاشتقاق الأكبر، ويسمى الإبدال، (وهو انتزاع لفظ من لفظ مع تناسب بينهما في المعنى والمخرج واختلاف في بعض الحروف، نحو: عنوان الرسالة وعلوانها). وهو في حقيقة أمره ظاهرة صوتية...وليس إدراجه ضمن وسائل نمو اللغة العربية بأقل غرابة من إدراج سابقه، إذ هو من حيث الاستعمال سماعي مطلقا، ومن حيث القيمة الوظيفية غير ذي مردود معجمي ولا إثراء دلالي"[38].

إن الاشتقاق الجديرَ بهذا المصطلح – في رأي المسدي – هو ما يسمى اشتقاقا صغيرا، لأنه توليدي، بل هو أهم وسائل التوليد المصطلحي. أما ما نتج في العربية بالإبدال والقلب، إنما نتج في اللغة العامة بطرق عفوية غير مقصودة. ولذلك لا يمكن أن يعتمدا في توليد المصطلحات.

2 – مآلات المصطلح:

– تعدد المصطلح للمفهوم الواحد:

كان من نتائج تناول موضوع الاشتقاق وتصنيف أنواعه، تعددُ المصطلحات الدالة على مفهوم واحد، فقد سمي الاشتقاق الصرفي بعدة مصطلحات: (الاشتقاق، والاشتقاق الصغير، والاشتقاق الأصغر، والاشتقاق الصرفي، والاشتقاق العام، والاشتقاق التوليدي).

(38) عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1984م، ص32 وما بعدها. والأقوال الموضوعة في النص بين قوسين نقلها المسدي من كتاب مصطفى الشهابي "المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث".

وسميت نظرية ابن جني بأكثر من مصطلح، سماها ابن جني نفسه: الاشتقاق الأكبر، والكبير، وسماها عبد الله أمين: الاشتقاق الكُبار[39]، وسميت قلبا، وقلبا لغويا، وقلبا اشتقاقيا[40].

وسمى الحاتمي الإبدال اشتقاقا أكبر، وسماه عبد الله أمين اشتقاقا كبيرا، وسماه كثير من العلماء والباحثين إبدالا.

وسمى عبد الله أمين النحت اشتقاقا كُبَّارا، وسماه صبحي الصالح كُبَارا، وسماه العلماء والباحثون نحتا.

- دلالة المصطلح الواحد على أكثر من مفهوم:

آلت دراسة الاشتقاق – عبر محطاته التاريخية – إلى تعدد دلالة المصطلح الواحد.

- فمصطلح (الاشتقاق الكبير): أطلق على نظرية ابن جني، وعلى القلب المكاني، وعلى الإبدال، واقترحه عبد السلام هارون لتسمية نظرية ابن فارس في مقاييسه.

- ومصطلح (الاشتقاق الأكبر): أطلق على نظرية ابن جني، وأطلقه أغلب العلماء والباحثين – بعد ابن جني - على الإبدال.

- ومصطلح (الاشتقاق الكُبَار): أطلقه عبد الله أمين على نظرية ابن جني والقلب المكاني، وأطلقه صبحي الصالح على النحت.

3. تركيب:

أ. وجوب التمييز بين نظرية ابن جني وبين القلب المكاني، وقد رأينا أنهما مختلفان اختلافا بينا.

(39) جمع عبد الله أمين بين نظرية ابن جني والقلب المكاني.

(40) عبد الله أمين، الاشتقاق، ص2.

ب. لا بد من التمييز بين الظواهر اللغوية، والنظريات اللغوية، ومناهج البحث. فالاشتقاق، والقلب المكاني، والإبدال، والنحت ظواهر لغوية وُجدت في نصوص العربية خلال مراحلها التاريخية المختلفة، وثبت تداولها ضمن خصائص اللغة العربية. أما صنيع ابن فارس في معجمه "مقاييس اللغة"، وما سماه ابن جني اشتقاقا أكبر في "الخصائص" فأجدر بأن يدرجا ضمن النظريات اللغوية، لأنهما يتميزان بجهد فكري بذله الرجلان في حقل المعجم العربي، تجاوزا فيه الوصف إلى التنقيب الدقيق عن الروابط العامة بين المفردات. وأما التقليب عند الخليل في كتاب "العين" فمنهج من مناهج البحث، استند إليه الفراهيدي لحصر مادته وترتيبها. وقد قاده هذا المنهج إلى التمييز بين المستعمل من كلام العرب والمهمل منه.

ج. وجوب تسمية الظواهر والنظريات والوسائل بأسمائها، وجعل الاشتقاق نوعا واحدا فقط يفرد بمصطلح (الاشتقاق)، وتسمية كل مفهوم من المفاهيم الأخرى بمصطلح يناسبه بعيدا عن الاشتقاق، خاصة أن لكل مفهوم مصطلحه: كالإبدال، والنحت، والقلب المكاني، فيما عدا نظرية ابن فارس، ونظرية ابن جني اللتين يمكن التفكير في المصطلح الذي يناسب كلا منهما.

د. ضرورة التمييز – في وسائل تنمية اللغة العربية – بين الوضع العام والوضع الخاص بالمصطلحات. فإذا كان الاشتقاق أقوى أداة لتنمية المعجم العربي، سواء من حيث الألفاظ العامة أو المصطلحات، فإن القلب المكاني، والإبدال، قد أديا إلى نشأة بعض المفردات العربية، ولكنهما لا يفيدان في توليد المصطلحات.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم أنيس، **من أسرار اللغة**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1966م.
- الجرجاني، محمد بن علي (816هـ)، **التعريفات**، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ -1983م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (392هـ)، **الخصائص**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4 (د. ت).
- الخليل، الفراهيدي (170هـ)، **كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، (د. ت).
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر(626هـ)، **مفتاح العلوم**، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ.
- السيوطي، جلال الدين (911هـ)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1998م.
- صبحي الصالح، **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1960م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد (395هـ)، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، الناشر محمد علي بيضون، ط1، 1418هـ-1997م. **ومقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، ط1399هـ - 1979م.
- عبد السلام محمد هارون، مقدمة كتاب **الاشتقاق**، لابن دريد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
- عبد السلام المسدي، **قاموس اللسانيات**، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1984م.

- عبد القادر المغربي، **الاشتقاق والتعريب**، مطبعة الهلال، مصر، ط2، 1947م.
- عبد الله أمين، **الاشتقاق**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2000م.
- علي عبد الواحد وافي، **فقه اللغة**، نهضة مصر، ط3، 2004م.
- مصطفى الشهابي، **المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث**، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ط1955م.

ذاكرة اللسان